أدب الحجّ في المغرب العربي

نماذج من الرحلة الحجّية المعاصرة في المغرب

د. سعيد بن سعيد العلوي

ملاحظات تمهيديّة:

١ ـ أفادنا اشتغالنا بأدب الرحلة عموماً، وبالرحلة في العالم العربي الإسلامي خصوصاً، أنّ الرحلة تنبئ عن صاحب الرحلة أكثر ممّا تخبر عن موضوع المشاهدة؛ ذلك أنّ الرحّالة، إذ يجتهد في تصوير البلاد والمناظر التي يرتحل إليها ويطلب تحقّق الإمتاع والمؤانسة بما ينقله إلى قارئه من غرائب وعجائب، فإنّه في ذلك كلّه لا ينفكّ من الحديث عن الذات تصريحاً وتضميناً، ولا يملك أن يخرج عن الإهاب الحضاري الذي يصدر عنه، ولا أن يبتعد عن الثقافة التي ينتمي إليها. وبعبارة أُخرى إنّ الرحّالة يحمل معه، في سفره ومشاهداته، عالمه الذي ينتمي إليه، فهو حاضر وحضوره يقوى ويخفت بقدر ما يشعر بالغربة وبملاقاة الغريب عن أذواقه ولغته ودينه. وبالتالي فإنّ الحديث عن «الغريب والعجيب» يستدعي حضور «المألوف»، أي المعتاد عند الذات، شخصاً عينيّاً وثقافة وحضارة. وعلىٰ سبيل المثال أبانت لنا قراءتنا لأُمم الرحلات وأغناها في ثقافتنا العربية الإسلامية،

وهي «رحلة ابن بطوطة»، عن صدق هذه الفرضية، فلا يجد المتابع للرّحالة المغربي أبلغ ولا أوفى من التدليل على صحّة قولنا من المقاطع والفصول التي يضرب فيها صاحب الرحلة بعيداً، في أقصىٰ بلاد الشرق الأقصىٰ، أو يوغل، في الشطر الثاني من رحلته في ارتياد القرى والغابات البعيدة في مناطق إفريقيا السوداء. بيد أنّا لسنا إلى الحديث النسقي عن الرحلة ونظامها ونسقيّتها نقصد، وإنّما هي ملاحظة أولى تمهيدية وعامّة نصدر بها قولنا لغرض عساه يستبين بعد قليل.

٢ ـ نود التمهيد بملاحظة ثانية، تمهيدية وعامّة أيضاً، وهي أنّ قراءة متن الرحلة العربية الإسلامية تكشف لنا عن وجود أصناف وأنواع من الرحلات في حقيقة الأمر. ونحن نذكر أنّ أحد الباحثين النابهين، ممّن كان لهم اشتغال بالرحلة في الثقافة العربية الإسلامية وإسهام في نفض الغبار عن بعض النصوص الهامّة التي تكاد تُنسى، يحصي خمسة عشر صنفاً من أصناف الرحلة[١]. فقد تكون الرحلة في الإسلام بهدف استكمال المعرفة أو تنقيحها في «رحلة علمية»، فالرحالة ينشد مجالسة عالمٍ أو الفوز بالإجازة العلمية منه. وقد تكون الرحلة متّصلة بالحياة الروحية. وقد تكون الرحلة خلوّاً من الأمر معاً فهي تستهدف المتعة والسياحة، فهما الوجهة والمقصد، كما أنّها تكون بهدف الحجّ وطلب الركن الخامس من أركان الإسلام في «رحلة حجّية»، أو هي تكون بهدف القيام بسفارة أو المشاركة فيها كاتباً مدوّناً أو مترجماً عن السفير فهي «رحلة سفارية».. ولعلّها تكون نتفاً من هذا كلّه فهي «رحلة عامّة» تجمع بين السياحة، والمتعة، والحجّ، وطلب العلم، وملاقاة أهل الزهد والورع.

---

(١) أنظر مقدّمة محمّد الفاسي لنشرته المحقّقة لرحلة محمّد بن عثمان المكناسي «الإكسير في فكاك الأسير»، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، ١٩٦٥، الرباط.

٣ ـ ملاحظة تمهيدية ، ثالثة وأخيرة ، نود الإشارة إليها في إيجاز يقتضيه المقام وقد كان لنا بسط القول فيها في دراسة مفردة[1]. والملاحظة ـ أو التنبيه ـ هي أنّ أدب الرحلة في العالم العربي الإسلامي يستدعي القسمة أو التصنيف بحسب الحقب التاريخية الكبرى والفاعلة في تشكيل الثقافة العربية الإسلامية ، وهذا أمر طبيعي بل إنّه بديهي ، غير أنّ ما يتعيّن إبرازه على وجه أخصّ هو أنّ هنالك سمات قوية واضحة تتميّز بها الرحلة في العالم العربي الإسلامي المعاصر ، بدءاً من منتصف القرن التاسع عشر وانتهاءً بالخمسينات من القرن الماضي . عن هذه السمات نقول ـ باختصار وفي إيماء سريع ـ : إنّها صدى الرجّة التي أحدثها في الوجدان الثقافي الإسلامي العربي المعاصر الاتّصال بالغرب الأوروبي واكتشاف المدنية المعاصرة . هذا ما يكشف عنه بوضوح الصنف من الرحلات ، الذي نقول عنه : إنّه صنف «الرحلة الأوروبية» ، ونقصد به ما دوّنه رحّالونا عن أوروبا في رحلاتهم إليها ، أمثال الطهطاوي ، والشدياق ، وبيرم ، وابن أبي الضياف و . . .

وأمّا المنتديات العلمية التي يجتازها صاحب الرحلة في رحلته الطويلة (والمتوسط في الرحلة الحجّية في العصور الوسطى سنة كاملة) .

ولعلّي أذكر أنّ لتلك الرحلة سبباً قويّاً وهو كسب الرحلة المذاق الخاصّ الذي أتحدّث عنه ، بأنّ الرحلة الحجّية تحوي في طيّاتها رحلة علمية حافلة بكلّ معانيها ؛ ذلك أنّ صاحب الرحلة ، وهو في الأغلب الأعمّ فقيه أو عالم من علماء الدِّين في مجال من مجالات الرواية والدراية ، ينشُد ملاقاة العالم الفلاني الذي سمع عنه في الزيتونة أو الأزهر أو القدس أو المسجد النبوي أو في مكّة المكرمة ، وهو يلتمس منه «إجازة علميّة» يرتفع بها قدرُه بين العلماء من أرض الوطن حين

---

(١) سعيد بن سعيد العلوي ، أوروبا في مرآة الرحلة : صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة ، منشورات كلّية الآداب ، جامعة محمّد الخامس اكدال ، ١٩٩٥ .

العودة إليه. وإنّما كان علينا انتظار الأزمنة المعاصرة لنجد صاحب رحلة حجّية من المغرب العربي، يقول عن رحلته: «إنّه قد جعل كتابه مختصراً، مقتصراً فيه على بيان الواقع دون توسّع في بحر المناسك وأحوال المواقع. فذاك ما قد أطال فيه السابقون، وأكثر من تكرار ذكره الرحالة والمؤلّفون»(١).

لقد كانت القاعدة العامّة، في أدب الرحلة الحجّية في المغرب العربي، هي ذكر المناسك والمواقع، وبالتالي التوسّع في مجالي كلّ من الفقه والجغرافيا، مثلما كان التقليد المتّبع هو «الترويج» على القارئ، بذكر أخبار «الغريب والعجيب»، بل لم يكن الأمر يخلو، أحياناً كثيرة، من التأمّلات الروحانية بل والشطحات الصوفية ينوب عن صاحب الرحلة مرويّاته ومحفوظاته من الأشعار والحكايات التي يمتزج فيها التاريخ العيني بالخرافة وتتداخل فيها التواريخ والحقب. وبالتالي فهي تستحيل، فعلاً، إلى إخبار عن الأحوال النفسية للرحّالة أكثر ممّا هي تخبر عن الحجّ والحجيج، مثلما هي تغدو متناً تتجاوز فيه أصناف الرحلات لتقترب من النعت العام الذي يقصده محمّد الفاسي بقوله: «الرحلة العامّة».

الحجّ في أدب الرحلة المغربيّة المعاصرة:

لا يتّسع لنا المقام للقول في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، فنحن نستسمح القارئ الكريم بالرجوع إلى دراستنا التي أشرنا إليها أعلاه، حيث عرضنا بالشرح والدليل(٢) لجملة الفوارق التي نرى أنّها موجودة في أدب الرحلة في التراث العربي الإسلامي، وحيث يلزمنا، توطئة للحديث عن الرحلة المغربيّة المعاصرة إلى حيث تكون مناسك الحجّ والعمرة وزيارة الروضة الشريفة في ثاني الحرمين، ذكر

(١) أحمد بن محمّد الصبيحي، الرحلة المغربية المكّية، مخطوط في الخزانة العامّة بالرباط، الورقة الأولى.

(٢) سعيد بن سعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرحلة... مصدر سابق، ص ١١ـ٢٨.

الملامح الكبرى الجليّة التي تميّز في أدب الرحلة العربية الإسلامية بين العصور وبين الأمكنة، نوجز فنقول في جمل قليلة قصيرة: إنّ الرحلة في التراث العربي الإسلامي تشترك مع أدب الرحلة عموماً (من حيث إنّه جنس أدبي له خصائص ذاتية، ومن حيث إنّه خطاب له منطقه الذاتي وقوانينه التي تتّصل بذلك المنطق)، وهذا ما يبرّر ـ على سبيل المثال ـ الدراسات المقارنة العديدة في الغرب الأوروبي بين رحلة ابن بطوطة ورحلات غيره من الرحّالين الأوروبيين إلى الحجاز، والمشرق العربي، ومصر، ودول المغرب العربي، وإلى دول الشرق الأقصى وغيرها، فالمقارنة ممكنة ـ من جهة بنية الخطاب الرحلي (= نسبة إلى الرحلة) ـ بين هذه النصوص جميعاً، وهنالك ثوابت تظلّ موجودة مع تعدّد لغات الحديث واختلاف الأزمنة والأمكنة، والرحلة، في التراث العربي الإسلامي، لها مظاهر تنفرد عنها، فلا نكاد نجد لها نظائر من غيرها من رحلات الأمم والشعوب خارج دار الإسلام بالنظر إلى الوظائف المتعدّدة التي تقوم بها (السياحة، طلب العلم، الحجّ باعتباره فريضة ومناسك لا مجرّد زيارة لأماكن مقدّسة وآثار تأريخية)، هذا من جهة.

ثمّ نحن نجد تشريعاً للسفر وآدابه، ولأحكام ممارسة الشعائر الدينيّة فيه (استدعاء الرخص، القصر في الصلوات، تحلية الإفطار للصائم بل استحسانه... الخ) لا نحسب أنّ له مثيلاً في أحكام وتشريعات الديانات الأُخرى. والرحلة في التراث العربي الإسلامي، فضلاً عن تنوّعها أنواعاً كثيرة، على نحو ما ألمحنا إليه في بداية الحديث، تتباين بالنظر إلى تعدّد العصور واختلاف الأزمنة. نعم، إنّ الانتساب إلى العصور القديمة، أو الانتماء إلى العصور الوسطى، أو الصدور عن الأزمنة الحديثة والمعاصرة، له فعله في بني البشر جميعهم، فلا شكّ في ذلك، وللأمر انعكاساته، المباشرة أو غير المباشرة، على أدب الرحلة من حيث إنّها

جنس أدبي مثلما أنّ له صداه القوي أو الضعيف، في بنية الخطاب الرحلي عموماً.. غير أنّ هنالك، مع ذلك، سمات تكسب أدب الرحلة في التراث العربي الإسلامي المعاصر نفحة أو تلوينات خصوصية، بل نوعية، لا نجدها في أدب الرحلات عند المعاصرين في دول الغرب الأوروبي، أو في البلاد الأُخرى، ممّا أمكننا الوقوف عليه، على كلّ حال، في بعض نصوص الرحّالين من دول أوروبا الوسطى، وبعض مناطق من الشرق الأقصى. هذه السمات هي ما نستسمح قارءنا الكريم بالتعريج عليها في فقرة قصيرة مفردة.

لا غرو أنّ في أحاديث الرحّالين العرب المعاصرين (المسلمين وغير المسلمين على السواء) شجى وأسى لا يتحرّج أصحاب الرحلات من إظهاره، ولا يرون أنّه ممّا يجب إخفاؤه وتغييبه، لا بل إنّهم يجتهدون في تسليط الأضواء عليه، ودعوة القارئ، بإلحاح شديد، إلى مشاركة الرحّالة في الأسى والشجى. أسى وشجى يتجاوز الذات ويعدوها إلى الحضارة التي يكون انتساب صاحب الرحلة إليها، والأمّة التي لا يملك الرحّالة من الانتماء إليها.. شجى وأسى مصدره معاينة الفارق البيّن بين ما عليه أوروبا من التقدّم الهائل في ميادين العلم والمعرفة والمعمار والنظم الاجتماعية والسياسية، وفي تنظيمات الجيش والإدارة، والقضاء... وبين واقع التخلّف عن تلك الأُمور كلّها عند بني جلدته من العرب في دار الإسلام. أسى وشجى يزكّيهما اكتشاف تأخّر آخر مؤلم، هو التخلّف عمّا كان عليه حال الإسلام وأصله في العصور الزاهية للحضارة العربية الإسلامية..

وإلى هذا كلّه، ينضاف سبب قويّ، يكفي وحده لإثارة الحزن والألم في النفوس، وهو أنّ هذا «الغرب الأوروبي» الذي يأتي اكتشافه بعد عقود، بل وربما قرون، من الركود والانحطاط، هو غرب غازٍ متسلّط، والأرض العربية الإسلامية أُفق لاستعماره ومجال لمكائد ودسائس القوى التي تتربّص به عشية الانقضاض

عليه. أسى وشجى يلحظهما قارئ رفاعة الطهطاوي، وكلّ اللّاحقين له في شرق العالم العربي وغربه (والإشارة تقدّمت إلى البعض منهم أيضاً)، لا بل إن خلف الأسى والشجى ـ ولربما ـ رفيقاً محايثاً له عقل ينظر محللاً ومقارناً، وذهن متوقّد يتساءل عن أسباب تأخّر بني قومه وأسباب تقدّم غيرهم من الغرب الأوروبي القويّ والمستعمر. نعم، عند قراءتنا لنصوص رحّالينا العرب المعاصرين، منذ منتصف القرن التاسع عشر، نجد مع ما ندعوه «التعاقد الضمني» بين صاحب الرحلة وبين قارئه، تعاقداً أو عقداً غير صريح، يلتزم الكاتب بموجبه الحديث عن «العجيب والغريب»، وتمكين القارئ من أقصى قدر ممكن من «الإمتاع والمؤانسة» فيما هو يتابع صاحب الرحلة في بسط أطوار رحلته: مشقّة وتعباً، متعة وفرحاً، حنيناً إلى الأصل والبلد والولد، وتنعّماً باكتشاف الجديد المثير اللذيذ.. ولكن خلف «التعاقد» هذا، وبمعيّته، بنود جديدة تنضاف إلى البنود المتقدّمة «المعتادة»: إنّها بنود تتّصل بالحفر والاجتهاد في تبيّن أسباب القوّة والغلبة عند «الغير» (= أوروبا) في مقابل مظاهر الضعف والتأخّر في «الذات» (= العالم العربي الإسلامي). فهذه الأسباب كلّها كان الرحّالون العرب المعاصرون (مسلمون وغير مسلمين) روّاداً في فكر «النهضة» أو «اليقظة» أو غيرهما من النعوت والأوصاف التي يتحدّث بها مؤرّخو الفكر العربي الإسلامي عن واقع «الانحطاط» و«التأخّر» و«الضعف» في أرض الإسلام في مقابل «التقدّم» و«التأخّر» و«القوّة» في أرض غيره، والحال أنّ في الإسلام ما يحمل على كلّ النعوت الإيجابية الأخيرة، ويبعد عن الأوصاف الأولى المتقدّمة.

كلّ هذه الأمور، جعلت مؤلّف الرحلة العربية الإسلامية رجلاً صاحب قضية، يعلو حديثه عن حديث «الإمتاع والمؤانسة»، وجعلت المفكّر العربي الإسلامي (وقد كان في الأغلب الأعمّ فقيهاً في الدِّين عالماً بالشريعة وما

اتّصل بها) في «رحلته» داعية، يفحص وينقّب ويقارن، وموجّهاً يريد أن يؤثّر (أو أن يسهم على الأقلّ) في مجريات الأُمور في البلد الذي ينتسب إليه.

في مساهمتنا المتواضعة، هذه نريد أن نسهم في التأريخ لأدب الحجّ في المغرب العربي لا نريد لإسهامنا أن يتوخّى سبيل الإحصاء والاستقصاء لمتن الرحلة الحجّية في هذه المنطقة من العالم العربي الإسلامي، ففي إمكان القارئ الكريم أن يقف على ذلك عند غيرنا في دراسات متقدّمة على عملنا ولها، فضلاً عن فضيلة السبق، مزية الاستقراء الشامل ما يكاد يكون كذلك[1]، بل نطلب التماس تقريب صورة هذه الرحلة من خلال أنموذج تجتمع فيه صفات كثيرة، قويّة وواضحة، دالّة.

محمّد الحجوي في رحلته الحجازية:

ينتسب محمّد بن حسن الحجوي الثعالبي (١٨٧٤ ـ ١٩٥٦م)، إلى تلك الطائفة من المفكّرين النابهين في الفكر المغربي المعاصر، ونحسب أنّه قد نال من الفقهاء المجتهدين المعاصرين شهرة واسعة بفضل كتابه «الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي»، فهذا الكتاب قد عرف انتشاراً وتداولاً كبيرين في أوساط العلماء في المغرب العربي ومصر والحجاز، وطبع أكثر من مرّة في المدينة المنوّرة. والكتاب، ولا جدال في ذلك، متميّز بطريقة صاحبه للتأريخ لتاريخ التشريع الإسلامي، وتطوّر الفقه الإسلامي، وبنظراته في الاجتهاد وطرائقه، وفي شرح التقاعس فيه في الأزمنة الحديثة والمعاصرة. غير أنّ للرجل مؤلّفات أُخرىٰ، عديدة، غير الكتاب المذكور، لا يزال الكثير منها مخطوطاً غير منشور، ومؤلّفات

(١) أُنظر، على سبيل المثال مقدّمة محمد حجّي في تحقيقه للرحلة الحجازية لمحمّد بن محمّد المختار الولائي (المتوفى سنة ١٣٣٠ـ١٩١٢)، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠، بيروت.

الحجوي تتنوّع بين الفتاوى الغزيرة المتّصلة بالحياة المعاصرة وقبول التقنيات المعاصرة وكذا التجارة وأسبابها، وبين التقايد التاريخية التي هي أشبه بالمذكّرات والشهادات الحاسمة بالنظر إلى المناصب الرسمية التي كان الحجوي يشغلها، وللمراحل التاريخية الحرجة في تاريخ المغرب المعاصر والتي كان شاهداً عليها حيناً، وطرفاً فاعلاً أحياناً أُخرىٰ.

شغل الحجوي وظائف هامّة في سلك الدولة المغربية، كانت وزارة المعارف من بينها، وإن لم تكن أخطرها، وكان عضواً في مفاوضات دقيقة وفي لجان تتّصل بقضايا التعليم والعدلية. كان هذا كلّه، بطبيعة الأمر، في سلك الحكومة المخزنية، تلك التي كانت بدورها ترزح تحت وطأة «الحماية الفرنسية»، وهذا الوضع جعل الرجل في أحوال من الصلة والتنقّل بين «المخزن» وبين إدارة الحماية الفرنسية. ولعلّ أقلّ ما يوصف به وضع الفقيه الموظّف المخزني السامي أنّه كان على بيّنة من أحوال الدولة والإدارة في المغرب، وإذ كان الأمر كذلك، بالضرورة، فإنّ نظراته في الإصلاح والتغيير كانت محكمة بثقل الظروف والإطّلاع على حقيقة ما تستطيعه الدولة وما كانت في الواقع عاجزة عنه، وإذن، فقد كان للموقع في مراكز المسؤولية والإدارة العليا أثرهما القوي في نظرات الرجل الاصلاحية، وفي مواقفه المختلفة.

بُعد آخر ثالث، هام وحاسم، كان له فعله في تكييف آراء مؤلّف «الفكر السامي» من الاقتصاد والتعليم، والمرأة، بل وفي توجيه الاجتهاد في الدين والتصدّي لعمل الفتيا، انتساب محمّد الحجوي إلى فئة التجّار الكبار، مساعداً لأبيه في التجارة بين مرسيليا ومانشستر وطنجة وفاس، وفي ممارسته لها ممارسة فعلية أكسبت خطبه في «مستقبل التجارة في المغرب»، «بالاقتصاد حياة البلاد»، «تعلّم اللّغات الأجنبية» وغيرها... أكسبتها مضامين لا تتوافر لمطلق الفقهاء، ولمن اندرج في سلك الوظائف العليا في الدولة.

نحن ـ إذن ـ أمام شخصية ثلاثية الأبعاد: الفقيه المجتهد ـ الموظّف المخزني السامي ـ التاجر المتمرّس بالتجارة استيراداً وتصديراً وانتقالاً إلى البلاد المغايرة للوطن الأصلي في العادات والتقاليد، بلاد تنتمي إلى عوالم القوّة، والتقدّم والنظم الحديثة في الإدارة والمال والتعليم، وفي نظام المجتمع، وروابط العلاقة بين الفئات والطبقات الاجتماعية المكوّنة لذلك المجتمع والمحدّدة لروابط العلاقة فيه.

أمر آخر، وأخير، تجدر الإشارة إليه وهو يتّصل هذه المرّة بالرحلة وأدبها، وهو أنّ الحجوي كانت له تجارب بالكتابة في هذا الموضوع، تجارب ترقى إلى نهاية الحرب العالمية. فهو قد زار كلّاً من فرنسا وبريطانيا غداة انتهاء الحرب، ودوّن الرحلة في نص جميل، غنيّ ممتع، قمنا بنشره ملحقاً لكتابنا السالفة الإشارة إليه (أوروبا في مرآة الرحلة)، مثلما أنّه ارتحل إلى إسبانيا في الثلاثينات وسجّل رحلته، في نصّ قصير غير منشور، هو رحلته «الأندلسية»، فضلاً عن رحلات قصيرة، متعدّدة، إلى دول أوروبا الغربية، أغلبها أوراق مبعثرة وملاحظات أوّلية أو تذكّر بما سبق له القول فيه في «الرحلة الأوروبية». وإذن فلم تكن مخطوطة «الرحلة الحجازية المصرية» التي نقترح الوقوف عندها رحلته الأولى ولا الوحيدة، وهذا من جهة أولى، مثلما أنّها كانت، وهذا من جهة ثانية، حاملة لصدى آرائه في المجتمع، والإصلاح، وفي التقدّم، وفي حالة العالم العربي الإسلامي مقارنة مع البلاد الغربية كما يراه، أو يرى البعض عنه في زمان الرحلة، وهو موسم الحجّ للعام ١٣٦٥هـ الذي يوافق اكتوبر ١٩٤٦م.

الآن، وقد نبّهنا إلى شخصية الرحّالة ومكانة صاحبها من الدولة والمجتمع والفكر في المغرب المعاصر، يكون لنا أن نتصفّح الرحلة ذاتها من خلال تقديم ملخّص لها أوّلاً، ثمّ من جهة التنبيه على الجوانب التي يخالف بها الرحل معاصريه من أصحاب الرحلات الحجّية المعاصرة في المغرب، وثالثاً من حيث وقفة عندما

يشكل ذروة الرحلة، وهي الالتقاء بالدولة السعودية الفتية من جانب، وتأدية مناسك الحجّ من جانب آخر، كلّ هذا، قبل الانتهاء إلى جملة الخلاصات التي نجد أنّ القارئ ينتهي إليها ضرورة.

قطع محمّد الحجوي في رحلته الطريق نفسها التي اعتاد الحجّاج المغاربة سلوكها، إلّا أنّه قطعها جوّاً، وكان تعداد السفر بالساعات. كان أوّل التوقّف ـ بعد الانطلاق من الرباط ـ مدينة وهران، ثمّ الجزائر العاصمة، بعد ليلة كان التوجّه إلى تونس: «وأقمنا بتونس لزيارة معاهدها العلمية، جامع الزيتونة وفروعه الأربعة التي بالعاصمة، ولقينا جميع مشايخها وتلاميذها»، وفي تونس، للحجوي أصحاب ورفاق، وله بالمدينة وأهلها صلات هي نتيجة أسفاره العديدة إليها واتّصاله بالجمعيات الكبرى فيها محاضراً ومستمعاً، ثمّ من تونس، كان الارتحال إلى ليبيا في محطّتين، طرابلس أوّلاً، فابن غازي ثانياً، ومن هذه المدينة الأخيرة إلى القاهرة ليكون مجموع الساعات من الرباط إلى القاهرة، كما يسجّل ذلك، ١٥ ساعة ونصف. ومشاهدات الحجوي في القاهرة وانطباعاته تستحقّ وقفة قصيرة لفسح الكلام فيها لصاحب الرحلة مكتفين باختيار العبارات الدالّة والنقط التي استقطبت وعيه أكثر من غيرها.

«باريز (باريس) العروبة، فإنّك ترى فيها جلّ ما هو موجود في عواصم أوروبا كباريز ولندن وبرلين ورمة (روما) وبروكسيل وغيرها من الأناقة والإتحاف في ظاهر الدور والإدارات والمعابد والمخازن، من كلّ ما يسمّى الآن بالرقيّ والتقدّم الظاهري، وتصفيف الأبنية، وتنجيدها، وزخرفتها، وإتحافها منها ممّا يبهج الناظر ويشرح الخاطر (...) مع اتّساع الشوارع وتنظيمها، وكلّ ما يقرّب المسافات الشاسعة من أطومبيلات وحافلات وما إلى ذلك (...) فلهي أبهج العواصم وأحفل المدن الراقية وأجملها، وشعبها أهدأ الشعوب وأبعدها عن

القساوة وفكرة الحرب (...) ولكن لم تبلغ مبلغ ما يوجد في العواصم الكبرى من الميطرو الذي اخترقوه تحت الأرض، يختبئون فيه من صواعق الطائرات، وقد توسّعوا بالشغل فيها أسفل الأرض، لذلك يجد شوارعها مكتظّة أكثر من باريز، ولا أراهم إلّا مضطرّين لجعل هذه الخنادق تحت الأرض عن قريب أو بعيد، بحكم الضرورة واتّقاء الزحام»[١].

لعلّ النصّ ينطق معبّراً عن الفكر الثاقب عند الفقيه المغربي، ولعلّه من العجب فعلاً أن نجد العالم الديني، التاجر الموظّف السامي في الحكومة المخزنية في المغرب، يتنبّأ بإحداث ميطرو الأنفاق في القاهرة خمسين سنة قبل وقوعه، معلّلاً لذلك «بحكم الضرورة». ثمّ من مستدعيات الملاحظة إعجابه بالقاهرة «باريز العروبة»، والقاهرة، دون حرج أو شعور بالنقص تجاه أوروبا القوّة والتقدّم والتي يعرفها معرفة لا تخلو من جودة، على جعلها في معرض الحديث والمقارنة مع العواصم الغربية الكبرى (باريز، برلين، لندن، بروكسيل)! وأخيراً ممّا يكشف بالنسبة لمؤرّخ الفكر العربي الإسلامي المعاصر، عن ثراء الفكر التحديثي عند الفقه المغربي، أن نرى عبارات الإعجاب الشديد وألفاظ المديح العالي التي يتحدّث بها خريج القرويّين عن الجامعة المصرية: «معهد المعاهد ومعجزة المفاخر جامعة فؤاد التي أسّست منذ نحو عشرين سنة فقط (...) وزد على ذلك ما احتفّ بهذه الجامعة من كلّياتٍ للعلم والأدب، وما هو منبت في شوارع العاصمة من كلّيات كثيرة، منها ما هو منتسب للأزهر ككلّية الشريعة ...، ومنها ما هو مضاف للجامعة وبلصقها ككلّية الآداب وكلّية الحقوق ... وهم وإن بنوا على ما أسّسه من قبلهم في الأزهر ومضافاتها وغيرها من المعاهد، لكن ما شيّدوه وزادوه أنسى ما عمله من

(١) محمّد الحجوي، الرحلة الحجازية المصرية، مخطوط في الخزانة العامّة بالرباط، الورقة الرابعة.

قبلهم بكثرته وإتقانه، وهو لا يقلّ عمّا أسّسته أوروبا في عواصمها، بل يفوق الكثير منه في هذه المدّة القصيرة»(١).

وخلاصة الإعجاب عنده، وخاتمة القول أرض الكنانة: «فرضي الله عن مصر وعن رجالها الأفذاذ الذين تلطّفوا حتّى أخرجوها من حجر الإنجليز، وانتزعوا من يده الفولاذية ميزانية بلادهم، وبرهنوا على أنّهم سياسيّون أكفّاء نزهاء وطنيّون حقيقةً لا مجازاً».

قد يجب القول اختصاراً وإجمالاً للقول؛ انّ الحجوي، في باقي رحلته (الشطر الحجازي والأهمّ فيها، أي ما هو موضوعها والغاية منها: أداء فريضة الحجّ) يختلف عن معاصريه من أصحاب الرحلات مخالفة تامّة. فإشاراته إلى كيفيّة الاعتمار، ثمّ الحجّ إشارات عملية مختصرة تفترض المخاطب عالماً مطّلعاً على أحكام الحجّ، إنّه: على سبيل المثال، يخالف محمّد المختار الولاتي ـ صاحب الرحلة الحجازية الشهير عند المغاربة ـ مخالفة تامّة في الحديث عن تفاصيل العمرة والحجّ، والخوض في دقائقها خوضاً جعله يفرد لها قسماً (هو القسم الرابع) من خمسين فصلاً، فهو نوع من دليل الحجّ والعمرة كما يقول محمّد حجّي، محقّق الرحلة: «وما أحرى هذا القسم من الرحلة أن يطبع على حدة كدليل للحجّ السنّي»(٢)، وهو عود إلى المعتاد عند أصحاب الرحلات الحجّية من حيث التعريج على مناظرات كلامية مع محاورين فعليّين أو متوهّمين، وهو اجتهاد وردود فقهية على فقهاء وعامّة شافههم أو كاتبوه في مسألة تتّصل بأحكام الحجّ أو العمرة أو آداب الزيارة، مثلما أنّه يغاير ما سلكه ماء العينين بن العتيق في رحلته الحجّية (في الثلاثينيّات) من الجنوح إلى الإغراق في الوجد الروحاني في الحديث عن المسالك

(١) المرجع السابق، الورقة الرابعة.

(٢) محمّد المختار الولاتي، الرحلة الحجازية مصدر سابق: ١١.

التي قطعها ركبه من جدّه إلى مكّة فالمدينة المنوّرة[١]. وعندي أنّ ما تتميّز به الرحلة الحجازية لمحمّد بن الحسن الحجوي هو ـ على وجه التحديد ـ ما يعكس شخصيّته على النوع الذي حاولنا تقريبه من القارئ: رجل الدولة المسؤول ـ الفقيه ـ التاجر، المهموم بقضايا التحديث والتغيير. هذه الصفات هي ما يكسب ملاحظاته عن الحجاز، في كنف الدولة السعودية الفتية، تمايزاً وفرادة.. وإنّه من المفيد لمؤرّخ هذه الدولة، أن يتبيّن الكيفيّة التي ترتسم بها صورتها في الوعي العربي الإسلامي المعاصر، والصورة التي يحفظها الزائر ـ الحاج، رجل الدولة القادم من المغرب العربي، لمؤسّس تلك الدولة ورمزها: الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود.

أوّل ملامح الصورة هي كرم الوفادة: «وفي صبحة الثلاثاء (= غداة الوصول إلى جدّة) قدّم لنا السلطان ابن سعود سيّارة خاصّة جديدة من أفخر وأفخم الأنواع، فامتطيناها جميعاً إلى مكّة المشرّفة، ولم تمض ساعة إلّا ونحن بحرم الله المعظّم، وما نزلنا إلّا بباب السلام».

ثاني ملامح الصورة، أو بالأحرى سماتها العامّة، تنكشف في اللقاء الرسمي: «ولمّا قابَلَنا وقف على قدميه، وتقدّم بخطوات إلى مصافحتنا فصافحناه كما يجب، فأجلسني على كرسي يمينه مثل الكرسي الذي هو جالس عليه، وأجلس النجلين عن يساره ... وسألني عن وَلَديَّ فعرّفته بكلّ منهما اسماً وعلماً وعملاً، وأبلغته سلام سيّدنا السلطان المؤيّد بالله ودعائه الصالح له ولأنجاله، وقدّمت له هدية منه فقبلها أحسن قبول وأظهر فرحه بها وتقديره إيّاها، وسألني عن أحوال جلالته ومملكته الكريمة، وبالغ في السؤال والدّعاء لجلالته، وسألني كيف كان سفري

---

(١) ماء العينين بن العتيق، الرحلة المعينيّة: تحقيق محمّد الظريف، مطبعة المعارف الجديدة بالرباط، الطبعة الأولى، ١٩٩٨.

وراحتي ... وسأل النجلين عن علمهما وحالتهما، وكلّ حالته وحركاته وكلامه دالّ على فضل الرجل ومنزلته واعتنائه بالعلم والعلماء، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلّا ذووه. واستدعانا للعشاء عنده ليلاً والحضور معه في غسل الكعبة من غده»(١).

ثالث ملامح الصورة يتّضح في الخطبة التي خطبها داخل الكعبة يوم غسلها، منها حضّه ملوك العرب ورؤسائهم على نصرة عرب فلسطين، ووصيّته لجميع المسلمين أن «لا يعلّموا أولادهم الثقافة الأوروبية الإفرنجية»، كما أثار انتباه الحجوي كبر سنّه: «بعد هذا الخطاب ودعنا، وهبط من الكعبة، وركب عجلة صغيرة طاف عليها لكبر سنّه وعجزه عن الطواف على القدم، لأنّه بلغ من الكبر عتيّاً».

رابع ملامح الصورة، يستمدّه الحجوي استقراء من حديث من حدّثه عنه من «من هم مطّلعون على أحواله ... سألت عن معلومات الأمي ابن السعود المذكور فقال: إنّ معلوماته عربية فقط، فقد درس رسالة لهم في فقه عبادة الحنابلة، وأُخرى في التوحيد على مذهب الوهابية. ولكن له ذكاء متوقّد، وحافظة جيّدة، وطويّة إسلامية، وشهامة عربية، وله مع ذلك حظّ قويّ في تسيير مملكته، والظفر بأعدائه. ولكن إذا ظفر حَلِم وعفى حتّى صار أعداؤه أحباباً له».

خامس ملامح الصورة، هو ما لمسه الحاج ـ صاحب الرحلة، الموظّف المغربي السامي، من إنجازات فعليّة أوّلها وأشدّها خطورة هو استتباب الأمن. وفي الذاكرة الإسلامية لصور مرعبة لقطّاع الطرق والحرابة داخل أرض الحجاز، في الطريق بين مكّة والمدينة. «وبالجملة أهمّ ما تراه في الحجاز انتشار الأمن بسبب ضبط الأحكام وصرامتها المهولة، فإنّ الحجاز كان في أيّام الترك والحسنيين وكر السرّاق

(١) محمد الحجوي، الرحلة الحجازية، مصدر سابق، الورقة الثامنة.

والنهّاب وقطّاع الطريق . وبوجود ابن سعود ، أطال الله عمره ، أباد هذا النوع من البشر الذي كان ضدّ الحجّاج وضدّ البشرية ، فأقام الحدود الشرعية بقطع يد كلّ سارق كيفما كان . وما قطع منها إلّا نحو العشرة فلم يبق منهم واحد ، وقتل قطّاع الطرق واللصوص حتّى لم يبق منهم واحد ، فأمنت البلاد وأقبلوا على التجارة والاكتساب» .

وثاني ما لمسه الفقيه ـ الموظّف المغربي المسؤول ، هو الاعتناء الشديد بالنظافة ، فمع أنّ الحجيج قد فاق المائتين وخمسين ألفاً «ومع ذلك ما كنّا نرى في المسجد الحرام الذي يحمل ـ باكتظاظ ـ قسماً مهمّاً من هذا العدد صباحاً ومساءً وليلاً شيئاً ما من فضلات هذا العدد ، ولا بالطرق المتّصلة به ، ولا بأبعد منه لا في ليل ولا في نهار ، كأنّ الجان ينقل فضلاتهم . . .»[١] .

أمّا الدولة السعودية ذاتها ، أجهزة ومالية وإدارة ، فلم تكن عين الحجوي كليلة عن رؤية ما كان يعدّه نقصاً يشينها ، ويمكن القول : إنّ الأبعاد الثلاثة في شخصية صاحب الرحلة (الفقيه ، الموظّف السامي ، التاجر) تجد ، جميعها ، مرتعاً خصباً لانتقادها وتسجيلها لجوانب الضعف والتقصير . فالفقيه يلاحظ أنّ «الحالة العلمية في الحجاز والحرمين الشريفين ممّا يدخل الكدر على كلّ غيور على مواطن الوحي والدِّين ، وهما النقطتان اللّتان ابتدأ منها انتشار العلوم الإسلامية والآداب الدينيّة ، . . . فكلّ من الحرمين الشريفين خال من دروس العلم الديني والدنيوي ، فما رأيت في مسجد مكّة والمدينة دروساً علمية أو تهذيبيّة»[٢] .

والموظّف المسؤول يرى أنّه وإن كانت «مالية الحجاز الآن مالية عريضة من المداخيل الوطنية ، كعشور المراسي والحدود . . . ومن دخل البطرول والليسانص

(١) المصدر السابق ، الأوراق : ٩ ، ١٠ ، ١١ .

(٢) المصدر السابق ، الورقة ١٢ .

وهي ثروة عظيمة ... كذلك حظّه من الذهب...»، إلّا أنّه «لا يوجد في الحجاز طرق منظّمة إلّا ما كان من طريق صناعية نحو ٧١كيلومتراً ما بين جدّة ومكّة المشرّفة». وتبرير ذلك عند الحجوي انعدام «مالية منظّمة كما ينبغي وكما يجب لتضبط الداخل والخارج، لعدم الرجال الأكفّاء المثقفين الماليّين الذين يحوطونه من التلاعب والعبث». ولعلّ من نتائج ذلك الاضطراب في ضبط مالية الدولة، ما سمع الحجوي عنه من اضطراب في صرف رواتب الموظّفين في أوقاتها المعلومة، وخاصّة المدرّسين منهم.

والتاجر المتمرّس بشؤون التجارة العليا المطّلع على أُمور وإدارة الدولة، يلاحظ وجود تفاوت بين حقيقة الغني، لغنى مصادر المال وتنوّعها في الدولة السعودية، وبين واقع الأمر من جهة العملة الرائجة، فهي تعادل نصف ما تحتمله «ولذلك انتشر غلاء مفرط في المملكة كلّها، فهي من أغلى البلاد، وهي من أغنى البلاد أيضاً، ومن أفقرها أيضاً»[١].

على أنّ الحاج محمّد بن الحسن الحجوي الفقيه، التاجر، الموظّف لا يعدم تقديم اقتراحات وبالأحرى أماني، لعلّها عينها التي كانت تراود الوافدين على بيت الله الحرام حجّاجاً ومعتمرين، أخصّها توسعة المسجد الحرام على نحو «يصير المسعى داخل المسجد الحرام الذي هو أحقّ التوسعة». والحجوي يرى أن تساهم الأوقاف، في كلّ البلاد الإسلامية، بنصيب في ذلك «بقدر مداخلها بعشرين في المائة من المدخول سنة واحدة، وإذا بقي شيء عجزت عنه الأحباس فيجمع بالاكتتاب»[٢]. وهو يتمنّى للأُمّة الإسلامية ـ فضلاً عن التوفيق في «توسيع مسجدها الحرام ومسعى طوافها» ـ أن يوفّقها الله إلى «توسيع أفكارها بالعلوم

(١) المصدر السابق، الورقة ١٠.

(٢) المصدر السابق، الورقة ١٥.

والمعارف على اختلاف أنواعها، فلا اعتبار بأُمّة لا توسع أفكار شبابها بالعلم والتهذيب الأخلاقي». وأمّا في الحديث عن توسعة الحرم المديني، فإنّ لهجته تعلو ونبرته تحتدّ فالأمر عنده «إهمال للمدينة المنوّرة، وتركها للخراب يركض فيها، ويضعضع بناءها».

خاتمة القول عندنا: إنّ «الرحلة الحجّية» ـ مع ما تطفح به من مضامين روحانية؛ فلا ينفكّ الرحّالة منها فهو في الحجّ في حال متّصل من الصفاء الروحي ومن الجذب القويّ تنبؤنا عن صاحبها أكثر ممّا تخبرنا عن الأمكنة موضع المشاهدة. إنّها تلقي أضواء كاشفة على شخصية الرحّالة وفكره، وتبرز القضية المحورية التي يهب حياته للدفاع عنها وكذا القضايا التي تتفرّع عنها. ورحلة الحجوي تحديداً تحمل ذلك كلّه، فهي إضاءة في معرفتنا بفكره حقّاً، عالماً مجتهداً، وموظّفاً مخزنياً مهموماً بقضايا التحديث في المالية والإدارة والتعليم.